

ملاحظات حول النقد الأدبي

الدكتور محمد رجب السيوي "القاهرة"

بمعنى العيب والانتقاص نقد جاء في قولهم نقدته الحية بمعنى لدفته ، ونقدت رأسه بأصبعي بمعنى ضربته ونعيا يروي من حديث أبي الدرداء ان نقدت الناس نقدوك بمعنى ان عبتهم عابوك ومن هنا رجح بعض الباحثين غلبة معنى النقد على مدلول المؤاخذة والتخطئة مشيرا الى ان اللغة قد وضعت لفظ التقريظ لما يقابل المؤاخذة من المديح والاطراء اخذا من قول العرب قرظت الجلد اذا دبغ بالقرظ محسن وزين وجمل وقد شاع معنى التقريظ اليوم شيوعا ظاهرا ، اذ نرى نفرا من الناس يحرصون على كتابة مقدمات لمؤلفاتهم تتضمن المديح الخالص دون ان تتعرض - الا في القليل - لمخالفة صريحة في الرأي والاتجاه ، ونحن لا نرفض التقريظ اذا صدر عن رأي وامتداد ووافق موضعه من البحث الرائع والمعمل الممتاز ، فهناك من الآثار الادبية ما هو جدير بالتقريظ الجميل ، ولكن المشاهد المؤلم ان اكثر من يتجهون الى التقريظ لا يضمونه الموضع الصحيح لربما رجح عندهم البهرج وشال الصحيح .

اذن تمييز الجيد من الرديء ، والعيب المنتقص كلاهما من مدلول المعنى اللغوي لكلمة النقد فاذا اتجهنا الى المعنى الادبي للنقد عند العرب وجدناه يستعمل في التقديم بمعنى التحليل والشرح والتمييز والحكم فالنقد لا يخرج لديهم عن دراسة الآثار الادبية وتفسيرها وتحليلها ثم بيان مداها من الاصابة والخطأ مقدرين درجتها الفنية شارحين اسباب الاستحسان

يطيلون الحديث من معنى النقد في اللغة فيلمون بكل ما قالت المعاجم في مادة نقد ومشتقاتها ثم يحاولون ان يعقدوا صلة ما بين كل معنى وما تمورف عليه الآن من معنى النقد الادبي ، وذلك جهد ان ابان من حسن التصرف وبراعة الاحتيال فانه يكثر الحديث في غير طائل ، والافوق ان نختار من معاني الكلمة اللغوية ما يمت بالصلة القريبة الى المعنى الاصطلاحي بلا تزيد في التفسير لنصل الى الحقيقة دون تصميب .

واذا كان من اوضح معاني النقد في كتب اللغة انه تمييز الجيد من الرديء ، تقول نقدت الدراهم وانتقدتها بمعنى انك ابنت الزائف من الصحيح ، وميزت الجيد من الرديء ، فان هذا المعنى الواضح هو القريب من مدلول النقد في الاصطلاح الادبي لان الناقد لا يخرج عن كونه صيرليا ماهرا ، يعرف الزائف من الصحيح ويميز الجيد من الرديء ، غير ان مادته هي الاساليب الادبية بمختلف فنونها واجناسها ، فهو اذن جوهر المعاني والالفاظ ، يزن الخواطر والمشاير والتعابير بميزانه الادبي ويبعث بفكره وراء كل كلمة وخاطره مبينا مكان ذلك من البناء الفني المتكامل للجنس الادبي فهو بعمله هذا من المدلول اللغوي قريب قريب واذا كان الناقد الادبي يعمد الى تصحيح الخطأ وتعويم المعوج وفي ذلك من توجيه اللوم فسنيا الى صاحب الاثر المنتقد ما قد يقع منه موقع الالم وعدم الارتياح فان من معاني النقد اللغوية ما يمت بصلة قريبة الى ذلك ، اذ ان العرب قد يستعملون النقد

والاستهجان وذلك ما يراه المحثون اذ يقولون من النقد انه التقدير الصحيح لاي اثر لمني مع بيان قيمته في ذاته ودرجته بالنسبة الى سواه. ، واذا كان النقد الادبي اليوم في جوهره هو دراسة الاسلوب مكسرة وتصويرا وتعبيرا واحسلسا مع الحكم عليه فان ذلك ما يلتقي بمعنى النقد في كتب الادب القديمة من ايسر السبيل .

واذا كانت الكتب المؤلفة في النقد العربي القديم، هي الجامعة لمذاهب العلماء والادباء في الفن ، والحافلة بآراء شيوخ الادب في النثر والشعر ، فاننا لا نصل منها الى تحديد اول من اطلق كلمة النقد على مدلولها الادبي من هؤلاء ، واقدم نص وردت فيه هذه الكلمة يرتفع الى البحري حين تحدث عن ابي العباس ابن ثعلب مقال عنه : « ما رأيته ناقدًا للشعر ولا مميّزا للالفاظ » ولكن رواية البحري جاءت على لسان مبد القاهر في «دلائل الامجاز» فلمه روى المعنى دون اللفظ، واطهر من نص على هذه الكلمة صراحة هو ابو الفرج قدامة بن جعفر البغدادي من علماء القرن الرابع (337) هـ حين سمي كتابه نقد الشعر وصرح بانه يبحث في تخلص جيده من رديئه ، وقد سبقه الى هذا المضمار محمد بن سلام الجمحي (232) هـ في كتابه «طبقات الشعراء» والجاحظ (255) هـ في «البيان والتبيين» وابن قتيبة (276) هـ في «كتاب الشعر والشعراء»، الا ان هؤلاء الثلاثة لم يشيروا الى كلمة النقد اطلاقا حتى جعلها قدامة اسما لكتابه فتعوربت واشتهرت، وترددت بعد ذلك في ماكتبه الامدي والجرجاني والزمخشري وابو هلال وابن رشيقي حتى أصبحت علما على من ادبي طائر الصيت ، ويخيل الى ان خلف الاحمر (180) اول من اشار اليها من قريب دون ان ينص على لفظها الصريح وكأنه حوم ولم يقع ، فقد روى صاحب طبقات الشعراء (1) ان قائلا قال له : اذا سمعت انا بالشعر استحسنه لما ابالي ما قلت فيه انت واصحابك مقال له : « اذا اخذت انت درهما فاستحسنته مقال لك الصراف انه رديء هل ينفعك استحسانك له » والصيرفي في اللغة هو الناقد وقد قرنه خلف الاحمر بمن يخلص الشعر ويزنه بميزانه الصحيح ، ثم صار الفاحص ناقدًا دون تفریق . هذا الناقد الذي يجلس من الاثر الادبي مجلس القاضي فوق منصة القضاء ، يحلل البواعث ويكتنه السرائر ويتعمق المعاني ما موقفه من النص المنقود ؟ يقتصر

في نقده على ايضاح مشاعره الذاتية ازاء النص لميجيء حكمه النقدي صدى لشعوره النفسي ومعبرا عن مدى استجابته الشخصية للنص المدروس أم يتعمد بقواعد علمية مرسومة تعارف عليها السابقون وجعلوها مناط الاحتذاء والترسم لقد طال النقاش حول الذاتية والموضوعية فانبرى الذاتيون ينادون بان الناقد ليس آلة في يد المقررات السابقة يسير في ضوئها ، ويمشو الى نارها ويحرص على التزامها دون انحراف ، فان له من مشاعره الخاصة وثقافته النيرة ، وبصيرته الناقدة ما يستطيع به ان يفسح بعض المقررات الجديدة التي تفتح اتجاهات مغلقة ، وتشير الى طرق حديثة في مجال التعبير والتصوير ، وبذلك يتقدم الادب في شتى مجاله ويضيف اللاهق الى السابق ما يطرد به النمو الادبي نحو الكمال هذا بعض ما يقوله الذاتيون ، اما انصار النقد الموضوعي ، فيرون ان الاهواء الشخصية تتحكم ، والبيول النفسية تسيطر لماذا تجرد الناقد عن كل مصطلح مقرر يمكنه تحت هذه البيول المتحركة ان يمدح المخطيء ويذم المصيب ولن يعدم من اوجه التحمل والافتعال ما يظهر نقده مظهر المحايد المتجرد ، واذا استطاع بمسح الحصفاء ان يدركوا ماخذ الضعف في انحرافه فـان الكثرة من القراء سينخدعون بطرائه ، ويسيروا في تياره وربما احتذى الناشئة حذوه فاندمعوا الى محاكاة ادب هابط رلعه ناقد مفرض حاجة في نفسه فامتد ضرره السيء الى نطاق بعيد هذا بعض ما يقوله الموضوعيون ، وتلك قضية تلزمننا ان نقول ان الحدود ليست فاصلة بين النقد الذاتي والنقد الموضوعي ، اذ ان النقد الذاتي مهما استجاب لتأثيره النفسي وتجاوبه الشعوري ومهما عبر عن انفعاله الخاص نحو اثر يقرؤه ويتذوقه فانه يصدر في تجاوبه واستجابته عن حسيلة قراءات سابقة تتفق على استحسان الجيد واستهجان الرديء ، وهو بعد لم يستطع ان يشق طريقه في ميدان النقد بحيث يصبح ذا تأثير كبير على قرائه الا بعد رسوخ في النظر المستقيم وادمان على البحث الجيد ، ومواصلة للدراسة المنقبة عن مطاوي المعارف ومجاهل الآراء ، وهو بكل هذه الدراسة الموضوعية لا يستطيع ان يكون ذاتيا يتجرد من جميع ما قرره السابقون من احكام ، كما ان الناقد الموضوعي مهما التزم المقررات المعلومة وتقيد بالمعارف المرسومة ونهج منهج المحافظين على تضايها الفكر ومذاهب البحث فانه انسان يحس ويتأثر

ويستجيب ، وله ذاتيته التي تدموه الى التفاعل مع النص تفاعلا يسير به الى تحبيذه في ضوء ما يعلم من المقررات فتمصر الذاتية قريب منه قرب الموضوعية من صاحبه ؟ فليست هناك حدود ماصلة تجعل الناقد الموضوعي ينعزل انعزالا تاما عن الناقد الذاتي ، غير اننا نلاحظ السمة البارزة لدى الناقد فاذا غلبت الذاتية على احكامه عد من انصارها واذا غلبت الموضوعية عليه كان ناقدا موضوعيا ، ومن خير الابدان ان يوجد الناقد الذاتي والناقد الموضوعي معا ليعتبر الاول ويجدد ويدعم الى آفاق جديدة تفيض بالضياء فيطرد النمو الادبي وتتسلسل الحلقات الجديدة على تناسل الزمان ، أما الناقد الموضوعي فيقف حائلا دون الشطط الجامح ، وحاجزا دون التهور في الرأي والاسراف المفرق ، وسير الزمن في دورته لينشأ في الجيل اللالحق من يزن آراء الذاتيين والموضوعيين معا ، فيرمي بالزبد ويبقى الصريح .

وإذا كنا نحب الادب ونحرص على الاستمتاع بصوره والامادة من افكاره والالتذاذ بموسيقاه فان حبنا للادب يدفعنا تلقائيا الى حب النقد ، اذ ان النقد يتولى شرح الاثر الادبي وتحليله فيسلط اشعته القوية على زواياه الخافية ، ويهدي القارئ الى مناح دقيقة قد تغيب عن ذهنه فيجيه عمله مكملا لعمل الاديب ، وقد يضيق كثير من المنشئين بهؤلاء النقاد ، ويترمون بما يبذون من ملاحظات وذكر اني قرأت قصة غريبة تهدف الى السخرية من النقاد وتصنمهم بالفضل والجذب وتتحداهم ان يضموا اثرا من الآثار الفنية التي يعملون فيها معاولهم الهادمة ولعل كاتب القصة ممن تعرضوا الى نقد متتابع ازعجه وأقلق راحته ، فاندفع يثار لنفسه من قوم يحملون معاول الهدم وادوات البناء معا ، لان الناقد حين يهدم اثرا فنيا انما يدل على نواحي ضعفه ومواقع تهافته ليتجنبها من يزاول الانتاج وهو في الوقت نفسه يدل على طريقة الانشاء الجيد هادما بانبا في وقت واحد وكل ناقد يعتمد الى الهدم فقط دون أن يشير بالعلاج المسدد لا يؤدي رسالته كما يجب أن تكون ، والقارئ ظالم حين يقرأ النص ثم يطالع نقده لانه حين قرا النص قد خرج عنه لا محالة بفكرة ما دقيقة او مضغاضة ، فمزنه بميزانه الشخصي الذي تخلقه الطبيعة في نفس كل قارئ يقرأ ويحكم لماذا قرأ بعد ذلك نقدا جيدا لهذا الاثر ، فانه يوجهه الى ما فانه لدى قراءته الاولى من ملاحظات وربما دفعه الى نهج يلتزمه عند القراءة فتمتد في نفسه بذرة ناقد حقيقي

يشرب للنمو ، وقد يشق طريقه الى الميدان ، أو يكتب بما يتيح له من توة الملاحظة وسعة الافق حين درس وجهة النظر الجديدة فيما طالع ودرس ، واذا كانت فائدة القارئ عظيمة فان فائدة صاحب الاثر الفني اعظم وادسم ، لان كل صاحب عمل نظري أو فني يجب أن يستطلع آراء المتخصصين فيه ، فهو يشعر في اطوائه برغبة ملحة الى الاستماع لكل ما يدور حوله. من وجهات النظر المختلفة ، فاذا صادف ناقد مخلصا لهدفه فانه يكمل نقصه بما يبدي من اعتراض أو مؤاخذة ، ولن يضيره في شيء ان يحصي الناقد اخطاه في دقة وتعميل لانه اذا آلمه من هذه الناحية فسيبصره حين يتعرض بالتحليل للكاشف الى مواطن الابداع في منه وموضع النبوغ في نظرائه ، وقد يكون سفره الى القراء ، اذ يوثق صلاتهم به حين ينتج عيونهم على مناهج جديدة في انتاجه لم تكن لتتاح للكثرة القارئة دون ناقد نزيه ، وعلى أن من الخطر كل الخطر ان يصبح الاديب تلميذا لناقده يخضع لتوجيهه ويرضى بقبول توصياته ، اذ ان من الناقدين من تشخ نفوسهم الى الاستعلاء فيدعون انهم اساتذة الابداء مع انهم في حقيقة نفوسهم لا يعيشون على غير تراث هؤلاء التلاميذ المزهومين ملولا ان الشاعر أو الكاتب قد أبدع اثره الفني ما وجد الناقد مجالا للحديث ؟ وفي الناس من يشترط في الناقد ان يكون ادبيا منشئا زاول الانتاج الفني ليكون ابصر بفضائته ، وادري بمنعرجاته وقد يكون ذلك ميسورا لدى بعض الموهوبين من النقاد ، الا انه ليس امرا عاما لدى الجميع ، وقد كان الراقعي رحمه الله يشترط في ناقد الشعر ان يكون شاعرا ، وهو اشتراط عسير التحقيق من ناحية وغير ضروري من ناحية أخرى اذ ان أكثر نقدة الشعر المجيدين في القديم والحديث ليسوا بشعراء ولم ينمهم ذلك عن تأليف الكتب الناجمة والمقالات الحاسمة في فن الشعر ومآخذ على أن الناقد من الاديب تربيب غير بعيد اذ أن ميدان الفن الادبي هو الانسان والطبيعة فالاديب اما أن يتعرض للنفس الباطنية بما يموج بها من تيار العواطف والنوازع فيصدر عن الذات الداخلية ناظرا الى العلاقات البارزة في الصلات الاجتماعية والمتناقضات البشرية والمواقف الإنسانية ومتخذا من كل ذلك مادة جميلة يقرأ فيها الناس نفوسهم الخفية في غبطة وارتياح ، واما أن يتعرض للطبيعة من حوله صابئة وناطقة فيتحدث عن الطير والحيوان وعن النبات والشجر والجماد وسائر ما يدهشنا به الكون من صور ومشاهد متخذا من كل ذلك مادة جميلة يقرأ فيها الناس نفوسهم

الخفية في غبطة وارتياح ، وأما أن يتعرض للطبيعة من حوله صامتا وناطقة فيتحدث عن الطير والحيوان وعن النبات والشجر والجماد وسائر ما يدهشنا به الكون من صور ومشاهد متخذًا من هذا المحيط الزاهر مسرحا بديعا لخياله الخالق ، وهو في نظريته الداخلية والخارجية لا يقدم للناقد شيئا غريبا عنه ، فهو انسان مثله يرى ويحس ويتصور ويحكم ، ولئن ماتته ابداع الصور المنشئة فلهديه ابداع المحلل الشارح وقد تكون المقالة النقدية بانسجام بنائها وتسلسل انكارها وإباض لغاتها وسر ابعائها ذات متممة وجدانية لدى المتذوقين .

ولكن اي ناقد الذي يمتعنا بفنه الادبي كما يمتعنا بنظره الفكري هذا؟ اننا نقرأ كل يوم في الصحف والمجلات - حتى الرصينة منها - لعمول تتسم بسمة النقد الظاهرية ولكنها لا تؤدي وظيفته الحقيقية فكم من ناقد يتعرض الى قصة او ديوان او مؤلف فلا يلج الى خوافيه ولا ينسر مراميه - مخالفا او مؤيدا - بل يكتفي بعرض هام يلم به من يقرأ مقدمة المؤلف في كتابه ، حتى قيل لكل موظف في مجلة او صحيفة انه يستطيع ان يكون ناقدًا ، وقد يكون عرض أبواب الكتاب والاشارة السريعة الى مضمونه ما يفيد القارئ ببعض الامادة ولكن صاحب هذا العرض لا يبت الى النقاد بسببوثيق مهما اخذ مظهرهم الخارجي في حديثه ونحن نشعر الآن بانخفاض المستوى الادبي في التأليف مما كان عليه في حقبة تربية ، ومرد ذلك في بعض أسبابه الى ضحالة النقد الادبي ، ومقتد الناقد الموجه ، الذي يملك القدرة على التشديد والتوجيه ، وليست الصفات المفروضة في هذا الناقد المسدد بالامر المعجز ، فهي مما يدخل في طوق نثر من الموهوبين لو تركوا الكسل الوداع ونشطوا السى العمل الديموب .

وأول صفات الناقد الهادف قوة البصيرة المستندة الى الذكاء اللامح ، فهو صاحب الرأي الممتاز في صفة ما تنتجه العقول المتارة من بيان ولا بد أن يجد لديه من النفاذ والعمق ما يسمفه بالتفسير الهادف ، والملاحظة القوية كما يمه برصيد هي من التجربة الفنية والحراية الشخصية بالبواعث والغايات ، ومبلغ ذلك كله من نفسه التي تتوهج بالفكر وتزخر بالمعاطفة والاحساس والتصوير وتلك ذخائر ثمينة يلمسها صاحب الاستعداد الاصيل في نفسه ليتصل بها الى ما يريد من التقييم والتقييم .

وهذه البصيرة المستندة الى الذكاء في حاجة ماسة الى الاطلاع المستمر على أحدث ما يجد من النظريات والآراء الدائرة في محيطه الفني ، لان سعة المعرفة تفتح آفاق النظر وتسلح صاحبها بالسوي عدده الماضية ، وكلما زادت هذه المعرفة منحت جناح صاحبها ريشا يخلق في آفانه المترامية ، واذا كنا نرى الآن بعض من يدأبون من النقاد على الاطلاع ويحرصون على اقتطاف اشهى الثمار من الحقل العلمي ثم لا يبلغون باطلاعهم الواسع ما يريدون من صدق النقد وكمال التوجيه لذلك لان الاطلاع والواسع وان تنوعت رواعده لا يفيد الناقد اذا عدم البصيرة القوية المستندة الى الذكاء اللامح ، اذ ان هذه المعارف المختلفة الهذية جيدة تنيد الجسم اكبر فائدة ولكن على شريطة ان توجد الانسان القاضمة والمعدة الهاضمة بحيث تتحول الى دم حار قوي ينح الجسم نشاطه ويجدد انسجته وخلاياه بالذنين يمتنون في الاطلاع الدائب دون ان يسلحوا بالذكاء اللامح والخبرة الحسيفة لا يعطون الصورة الامينة للناقد المنشود .

وتأتي بعد قوة البصيرة وسعة الاطلاع صفة ثالثة للناقد الجيد وهي تجرده الخالص من ميوله الذاتية واهوائه الشخصية بحيث ينسى مصيبتة لما يمتنق من مذاهب حين يتجه الى النص بالنقد اذ ان هذه الميول الخاصة تفسح على الحقائق ستارا يحجب كثيرا من لائها الساطع ، ونحن نعلم ان الانصاف الادبي خلق عزيز النال لا يرتقى اليه غير ذوي العزم من اصحاب المبادئ النبيلة ولكنه على صعوبة مثاله موجود متحقق لدى قلة تتسم به وتصدر عنه نبيها تدلى به من الاحكام ومن غرائب النفس البشرية ان صاحب التعمص الذهني قد لا يلتفت في بعض احواله الى تعصبه بل يتجه اليه لا شعوريا تحت تأثير عوامل قوية بعيدة الخفاء في منطقة التأثير الباطني فهو صادق بينه وبين نفسه حين يعلن اليك تجرده النزيه في نقده اذا اردنا بالصدق موافقة النقد للاتجاه الشعوري في رأي الناقد ولكنه غير صادق حين نحلل اعماليه الدفينة التي قد يجهلها جهلا تاما لنترك ما التي التعمص على عينيه من فحشاء ، وعلى القاريء ان يدرس ناقدته دراسة واقفية ليملم مذاهبه التي يتمسك بها في مختلف امانين الرأي من سياسة وادب واجتماع ما دام يصدر عنها لا محالة ، فالتعمص الذهني كان ولا يزال مما يضع الحوائل الكثيفة دون الصواب الصريح اذ ان صاحب الاتجاه الديني او السياسي او الاجتماعي لا يستطيع التخلص من مبادئه

مجالاً ، بل نريد أن يكون هذا الود الانساني مدعاة الى تفهم الاثر على حقيقته من ناحية وهاملا على قبول المنقود له وانتفاعه بما يحمل من تسديد وتوجيه ، فما أضر بالنقد في حديثه وتديبه غير قوم رأوا الاستعلاء والسيطرة باب المواخظة والنقض فشنوا حربا طاحنة كان الأولى أن تكون مسامرة هادئة حتى لقد وتر عند الناقد أن الشدة العنيفة هي طريقة التصويب والتقييم ، كما انتقلت العدوى الى جمهرة القراء فأخذوا يتابعون أصحاب القسوة المفرطة معجبين ، وقد تعجب حين ترى بعض المتزعمين في ميدان النقد قد نالوا بسلطتهم المفرضة ما لم ينلّه الشرفاء من أبناء الكلية وأرباب الهدوء المتزن وأن كان مع هذه الجمهرة المشفوفة بقسوة النقد قلّة منصفة تفر من الضجيج المفتعل ، وتسد أذنيها لدى الفرقة الصاخبة ، وهي طائفة المستنيرين من ذوي النظر البعيد ، ومن الحظ الحسن أن يكون هؤلاء على قلوبهم أداة الترجيح الحقيقية في المعركة إذ يقولون فيسمعون .

ونحن في عصر تقدمت فيه العلوم الإنسانية فتشعبت فروعها واتسعت ميادينها وأصبحت تمد المثقف المعاصر بزاد دسم يمينه على النظر الثاقب والفكر الصحيح ، وإذا كان الناقد ملزما كل الأزام أن يلم الماها حسنا بخير ما ينتجه الفكر الانساني من علم وفلسفة ، لتتسع آفاقه الفكرية ، فقد شهدت المارك الأدبية في هذا العهد نقاشا حادا حول صلة هذه العلوم الإنسانية بالنقد المعاصر ، فذهب فريق من الكاتبيين الى تمعيد النقد ودعمه على أسس علمية ترتكز على هذه العلوم بمعنى أن تكون من علوم النفس والاجتماع والجمال أسس صالحة للنظر النقدي إذ أن عالم النفس حين يلم بالنفس الإنسانية ويعلم نوازعها المتباينة وتياراتها المتصارعة وما تسببه المعقد النفسية من صراع ، وما تلبه الفرائز من أهواء وميول فانه يستطيع على ضوء هذه المعرفة النفسية أن يحلل النص الأدبي تحليلا يبرز مكان القوة وأسباب الضعف في جملته وتفصيله ، كما أن عالم الاجتماع حين يرصد موقف الأديب من مجتمعه وأثر المجتمع في تكوين الأديب وتلوين مشاركته ، وتنازع أهوائه فانه يلمس أثر ذلك نميا قدم من إنتاج أدبي ، وربما التمس له بعض العذر في ما يخالف وجهة النظر العامة بعض المخالفة ، وكذلك عالم الجمال الذي درس أصوله وألم بمقاييسه وعرف مدى ما توصل اليه في البحث عن حاسة الجمال وميزان الشيء الجميل فانه بمقاييسه الجمالية يستطيع أن يزن الأثر الأدبي ميزانا علميا لا تميل به النوازع

الفكرية في سهولة مفرطة ليجنح الى الحكم النزيه على اثر أدبي لا يرتضي منحاها وفي تاريخ النقد العربي أمثلة كثيرة لشيوخ يمتنون مذاهب خاصة في الحديث والتقديم تشل عقولهم من التفكير الصحيح ، فهناك من يتمصب للجاهلين وحدهم ، ولا يكاد يفضل غيرهم في مجال الاستشهاد وهناك من يلسح صدره فيهمم الاسلاميين والامويين الى دائرة رضاه ويقف موقف السخرية مما أحدثه ادباء العباسية من إنتاج ، كما وجد أيضا من شيوخ النقد القديم من ينزع عنه رداء التمصب ، وينظر الى النص الأدبي نظرة مجردة من التمصب لاتجاه معين يصدر عنه نميا يقول ولعل ابن قتيبة قد أفصح عن نفسه وعن غيره حين قال في كتابه عن الشعر والشعراء : « ولم أقصد نميا ذكرته من شعر كل شاعر مختارا له سبيل من قلود أو استحسنت باستحسان غيره ولا نظرت الى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ولا المستأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره بل نظرت بعين العدل الى الفريقين وأعطيت كلا حقه وولمت عليه حظه فاني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم تائله ويضعه موضع متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده الا أنه قيل في زمانه ورأى تائله ، ولم يتصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ولاخص يوما دون قوم بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباداه وجعل كل تديم منهم حديثا في عصره ، وكل شرف خارجية في اوله ، فقد كان جرير والفرزدق والاخلط يعدون محدثين ، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول لقد نبغ هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت بروايته ثم صار هؤلاء قديما عندنا ببعده العهد منهم وكذلك من يكون من بعدهم لمن بعدنا كالخريمي والمتابي والحسن بن هانيء فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له واثينا عليه به ولم يرعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه » .

ولابد أن نشير الى صفة رابعة للناقد الجيد وهي الصفاء النفسي الذي يطبعه بطابع الهدوء السوادع ويمنحه اعتدال المزاج ، واطمئنان الأعصاب فلا يثور لمخالفة أو يحتاج لتقيصة بل ينظر الى الأثر نظرة الحكيم العالم بالبواهب المعطوف على الإنسانية في ضلعها وكبوتها ، فهو مع النص المنقود دارس متزن يعرف دواعي القول ، ويلقى صاحبه بابتسامة الود حين يشرح وجهة نظره ويضع نفسه مكانه مصورا ما أشترج في صدره من الاحاسيس حين رسم خلجاته في ما قدم من إنتاج ، ولا نريد بذلك أن ينقلب النقد تقريظا

الخاصة في شيء ، هذا ما ذهب اليه فريق من الباحثين وتطاحنوا من أجله مع فريق آخر يرى أن الدعوة إلى تعميم النقد الأدبي ودعمه على أسس علمية ترتكز على العلوم الإنسانية خطر داهم يحيط بالنقد الأدبي ، لأنه يصرف الناقد من التذوق الفني الخالص إلى اصطلاحات علمية تلتقي على دراسته ظلمة مبهمة ، لا تساعد على ارتقاء ذوق أو تفهم احساس إذ يرون أن عمل الناقد الأول هو دراسة النص الأدبي وتفسيره في أمته الأدبي المتفوق بحيث يقف الناقد ليسجل خواطره الذاتية محللاً مسرراً دون أن يتعامل بمصطلحات تنف كالصخور الثقيلة في طريق القارئ دون جدوى . هذا بعض ما تنازع حوله الفريقان باذلين جهودهم الشاقة في التدليل والتعليل ، فأصحاب الرأي الأول يرون أن العلوم المختلفة تتشابه وتمتد لتقدم للذهن البشري غذاء يسد نظره وينير طريقه ، ولا بد من الإلمام بها لنصل إلى الحقائق الأدبية دون انحراف ، فإن العصر الحاضر هو عصر الدراسات التجريبية في كل مجال ولا بد أن تطبق هذه الدراسات على الإنسان ليفهم على ضوءها منازع انتاجه وبواهب خواطره ، وذلك مما يدعو إلى تثقيف الناقد تثقيفاً بصيراً ، لترتفع البحوث الأدبية إلى المستوى المنهجي ذي القواعد المضبوطة ، والموازن الدقيقة ، أما الذين يخالفون ذلك لهم في رأي دماء التثقيف العلمي انفعاليون لا يصبرون على بحث بل يسرعون إلى الاستجابة إلى تاثراتهم السريعة عند القراءة العاجلة مما يدفعهم إلى الشطط في الحكم والانحراف من الجادة ، ولن يسكت أصحاب الرأي الثاني عن خصوصهم نهبوا يقولون أنهم ينسون وظيفة النقد الحقيقية وهي دراسة النصوص الأدبية ، وتحديد كل معنى وكل لفظ مع إيضاح صلة الإنكار وارتباطها وملاءمة الشكل للمضمون وكل اهتمام للمعارف الإنسانية على هذه الدراسة مما يعمد بالناقد عن ميدانه ، ولنا نقول بعدم جدوى هذه المعارف الإنسانية للناقد فهي توسع مداركه وتفسر غوامضه دون نزاع ، ولكننا نقول أن اهتمامها في النقد مما يطمس بريقه ويضعف تأثيره وهم بذلك يتفنون مع أصحاب الرأي الأول في جدوى هذه الدراسات ككفالة عابئة للناقد ، ويختلفون معهم اختلافاً يصل إلى حد الغشوة والعنف في محاولة استخدام مصطلحاتها العلمية وأساليبها النظرية في عملية النقد ذاته ، ونحن

معهم في أن النقد الأدبي يجب ألا تتكرر مشاريعه بهذه التسميات النظرية والمصطلحات العلمية بل يظل في مستواه الفني واضحاً مشرقاً يخاطب الذوق والمعل والمعاطفة دون غشاء ، ولدنيا المثال البارز على نساد التفريع العلمي في مجال النقد الأدبي بما نعرفه من انحدار علوم البلاغة في جهودها الأخيرة على يد العقنيين من أمثال السكاكي والقرويني والسعد وغيرهم ممن جانب مذهب عبد القاهر في الاستشفاف الذاتي المستند إلى الموهبة البيانية والخبرة الأدبية إذ أن هؤلاء العقنيين جعلوا من بحوث البلاغة الأدبية مجالاً للمنطق والفلسفة ثم خلف من بعدهم خلف نظر إلى هذه المباحث نظرة الماهكة والتبرير مختصت البلاغة خنقاً فيما كتبه من متون وحواش وتقريرات؟ فالرأي الفصل فيما نشب من عراك حول هذه العلوم الإنسانية أن يلم بها الناقد المأما يزيد من ثقافته ومهته على أن يعتمد عليها كل الإبتعاد في مجال التطبيق الأدبي إذ يقف أمام النص الفني وجهاً لوجه دون ستار، وقد ذهب معارضو اهتمام هذه النظريات العلمية في مجال النقد الأدبي إلى الاستشهاد بأقوال أساطين النقد الأوربي مثل لانسون الفرنسي حين يقول فيما ترجمه عنه الدكتور محمد مندور « أن الاصطلاح العلمي عندما ننقله في الأدب لا يلقي غير ضوء كاذب ، بل يحدث أن يلقي ظلمة ، وأمن في الروح العلمية موقف أولئك الأدباء الذين لا يدعون بناء أي شيء على نموذج غيره ، بل يتصرفون همهم على رؤية الوقائع الداخلة في مجال بحثهم ، والمثور على العبارات التي لا تخلف شيئاً خارجاً عنها ولا تضيف إليها إلا أقل ما يمكن والشيء الذي يجب أن نأخذه من العلم ليس كما قال مردريك وهو هذه الوسيلة أو تلك بل روحه » . وإذا كان الدكتور محمد مندور في طليعة من نادوا بالابتعاد عن اهتمام العلوم الإنسانية في مجال النقد الأدبي فقد أيد وجهته بما ترجمه من أساتذة النقد في فرنسا من مقالات وكتب تناقش هذه المسائل ، كما لم ينس إجداده العرب حين بحث من أقوالهم المتصلة بهذا الموضوع فنقل من ابن قتيبة قوله في مقدمة « أدب الكاتب » (1). ولو أن هذا المعجب بنفسه الزاري على الإسلام برأيه نظر من جهة النظر لاحتباه الله بنور الهدى وثلج اليقين ، ولكنه طال عليه أن ينظر في علم الكتاب وأخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته وفي علوم العرب ولغاتها وآدابها

(1) النقد المنهجي عند العرب لمندور ص 27 - النقد المنهجي ص 115 .

وبراعة اللفظ يزيد المعنى المكشوف بهاء وحسنا ورونقا حتى كأنه أحدث فيه غرابة لم تكن وزيادة لم تعهد وذلك مذهب البحثري .

وواضح أن الأمدي يتحدث هنا عن الشاعر لا عن الناقد وقد يظن ظان أن الاستشهاد في غير موضعه ؛ ولكننا نقول أن النقد الأدبي في حقيقته الأصلية — عمل أدبي كالشعر ، وكاتب النقد كناظم القصيدة يجب أن يقدم نقده واضحا شافيا بعيدا عن غموض العويص من اللغة والدقيق من المصطلحات ؛ وإذا كان للشاعر أن يتشقف بالدراسات الإنسانية كما يتشقف الناقد فان مصطلحات هذه الدراسة لا يجوز أن تنتقل إلى القصيدة الشعرية كما لا يجوز أن تنتقل إلى الكتابة النقدية سواء بسواء .

وإذا كنا نعرف أن النقد الأدبي يقوم على الذوق المستشف البصير بمراتي النبوغ ومهاوي الضعف في الأثر الأدبي ، فليس لكل قارئ أن يقيم من ذوقه الخاص ناقدا يصدر الأحكام الأدبية ويوزعها ذات الشمال وذات اليمين كما يشاء ، ولكن صاحب الاستعداد الفطري بالطبيعة والمكتسب بالقراءة والموازنة وسعة الخبرة هو الذي يستطيع النفاذ إلى النص الأدبي تحليلا وتفسيرا وحكما ، وهو القادر على أن يندمج فيها يقرأ اندماجا يوحي له بكل ما يمين من تقدير أو مؤاخذة ، مستعينا بعاطفته ومقله وحسه على أداء وظيفته النقدية ومستجيبا إلى هوائه نفسه فيما توحي به من ارتياح أو نفور ، ولحق ما أدى إليه تمرسه الطويل ومزاويلته المستمرة في محيط العمل الفني لذوق الناقد لا يقف به عند مجرد الاستحسان أو الاستهجان بل يهديه إلى حيثيات ما يصدر من حكم يكن وراءه الذهن الصافي والقرينة الخصبة والحس المتيقظ لادق الخلجات وأبعد اللوامح ، ونقد يخالف الناقد الذواقة زميله الذواقي في حكم ، ويكون كلاهما صحيح النظرة سليم الاتجاه لأن الطلية الأدبية تتسع لاكثر من اتجاه ، ولأن الطبيعة البشرية تفرق في مدى الاستجابة وقوة الإيهام ولحق ما لايس الناقد من خبرات قد تختلف في بعض تجاربيها من خبرات زميله، ومن هنا نجد الناقدين الكبيرين يحكمان على القصيدة أو المسرحية أو المقالة بما قد تفرق به الاتجاهات ، ومن البعيد أن يبلغ الاختلاف بينهما درجة التفساد والتباين وأن وقع ذلك فهو من الندرة بحيث لا يمثل قاعدة مطردة إذ أن المسلم به أنه توجد مع عوامل الخلاف عوامل أخرى للاتفاق تحول دون التضاد الصريح ، إنما يكون هذا الاختلاف بين الناقدين

مغضب لذلك وعاداه وانحرف عنه إلى علم قد سلمه له ولأمثاله المسلمون وقتل فيه المناظرون له ، ترجمة تروق بلا معنى ، واسم يهول بلا جسم لماذا سمع الغمر والحدث الغر قوله ، الكون والفساد ، وسمع الكيان والاسماء المفردة والكيفية والكمية والزمان والدليل والاختبار المؤلفة ، راعه ما سمع وظن تحت هذه الالتاب كل فائدة ولطيفة لماذا طابمها لم يحل منها بطائل إنما هو الجوهر يقوم بنفسه ، والمعرض لا يقوم بنفسه ، ورأس الخط التمتلة ، والتتملة لا تقسم ، والكلام أربعة ، أمر وخبر واستخبار ورغبة . ثلاثة لا يدخلها الصدق والكذب وهي الأمر والاستخبار والرغبة وواحد يدخله الصدق والكذب وهو الخبر . والآن حد الزمانين مع هذين كثير ، والخبر ينقسم إلى تسعة آلاف وكذا وكذا مائة من الوجوه ، لماذا أراد المتكلم أن يستعمل بعض تلك الوجوه في كلامه كانت وبالا على لفظه وتيدا للسانه وعيا في المحائل وغفلة عند المتناظرين » ، ولن نعلق على نقل الدكتور مندور عن ابن قتيبة بشيء سوى أن صاحب « ادب الكاتب » قد ذكر ما يدور من اصطلاحات العلوم في عصره مما تداوله علماء المنطق والفلسفة والكلام من أمثال الجوهر والمعرض والكيف والكمية ، ولكل عصر مصطلحاته وتواعده ، فما يذكر اليوم من مصطلحات علوم النفس والاجتماع والجمال شبيه بما دار في عصر ابن قتيبة من غوامض التعريفات ولم يكتف الدكتور مندور بقول ابن قتيبة بل عززه بما ذكره أبو القاسم الأمدي في الموازنة بين الطائيين حيث قال بعد نقل متشعب :

« وإذا كانت طريقة الشاعر غير هذه الطريقة — طريقة السهولة والوضوح — وكانت عبارته مقصرة عنها ولسانه غير مدرك لما يعتمد دقيق المعاني من فلسفة يونان وحكمة الهند ، أو ادب الفرس ، ويكون أكثر ما يورده منها بالفاظ متعسفة ونسج مضطرب ، وإن اتفق في تضاعيف ذلك شيء من صحيح الوصف وسليمه قلنا له قد جئت بحكمة وفلسفة ومعان لطيفة حسنة فان شئت دهونك حكيما أو سمينك فيلسوفا ولكن لا نسبيك شاعرا ولا ندعوك أديبا لأن طريقتك ليست على طريقة العرب ولا على مذاهبهم فان سمينك بذلك لم نلحك بدرجة البلغاء ولا المحسنين الفصحاء ، وينبغي أن تعلم أن سوء التأليف وردى اللفظ يذهب بطلاوة المعنى الدقيق وينسده ويمحيه حتى يحتاج مستمعه إلى تأمل وهذا مذهب أبي تمام في معظم شعره ، وحسن التأليف

مداد علم البيان على حكم الذوق السليم الذي هو
انفع من ذوق التلميم ، وهذا الكتاب وان كان ليس
يمليه عليك استاذاً واذا سئلت مما ينفع به قيل لك
هذا ، فان الدربة والادمان اجدي عليك نفعا ، واهدي
بصرا وسعما ، وهما يريانك الخبر عيانا ويجعلان
مسرك من القول امكانا ، وكل جارحة منك قلبا
ولسانا ، فخذ من هذا الكتاب ما اعطاك واستنبط
بادماتك ما اخطاك ، وما مثلي فيما جهده لك من هذه
الطريق الا كمن طبع سيفا ووضعها في يمينك لتقاتل به ،
وليس عليه ان يخلق لك قلبا فان حمل النصال غير
مباشرة القتال .

هذه خطرات امهد بها للحديث عن النقد العربي
في اطواره المتعاقبة لنعطى القارئ اضاءا تهديه في
ارتداد طريق ممتدة الشعاب ، وهي بعد خلاصة
مركزة لبعض ما يدور حول هذا الفن من آراء تشغل
النقد والناقدين .

الكبيرين غالبا في درجة الحكم ونسبته فهو يترجح بين
الحسن والاحسن او الجيد والاجود او الضعيف
والاضعف ، وهذا حين يكون النقد فنيا تائريا لا مذهبيا
معانديا حيث يلتزم الناقد باتجاه ديني او اجتماعي او
سياسي يدعو اليه ، فمن الممكن اذن ان يصل الخلاف
بين الناقدتين الى درجة التضاد ، ومن حسن الحظ ان
النفوس اصبحت تفتق بالنقد المذهبي في مجال الادب
الخالص ، وتراه عامل تعصب لا يهدف الى الحكم
المجرد التزيه انما النقد ذوق خالص مفتوح يستوحى
النص دون تقيد او تضيق ، وهذا الذوق هبة عليا
تمنح لذوي المواهب وتصل بالقراءة والنظر والتمرس
البصير ، ويهمننا ان ننقل عن ناقد عربي كبير رأيه
الخاص في تقدير الذوق الموهوب وارتكاز النقد الادبي
عليه ارتكازا يجعل كل تعليم دائب لا يكاد يفني عنه
شيئا ذلك هو ضياء الدين بن الاثير حيث يقول في
مقدمة « المثل السائر » « اعلم ايها الناظر في كتابي ان